

محاضرة رقم 11:

تطبيقات الحجاج في نماذج من الخطب:

لعب الحجاج دورا هاما في الحياة العقائدية والسياسية في البيئة العربية والإسلامية، فقد كانت استراتيجية الحجاج واضحة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وفي الخطابات التي سبقت هذه الفترة بكثير، وذلك في المنافرات القبلية في العصر الجاهلي، ثم تنامت بعد بعثة النبي "صلى الله عليه وسلم"، وتبلورت في كثير من العلوم، مثل علوم الفقه وأصوله، وعلم الكلام، والعلوم اللغوية، وقد كان الإقناع مطية أطراف الخطاب في المسامرات والندوات والنقاشات، مما جعله السبيل الأقوم لإبراز مكنونات هذه العلوم والدفاع عنها¹.

الاستدلال بواسطة التمثيل في الخطب:

التمثيل طريقة حجاجية تعلق قيمتها على مفهوم المشابهة، فهو لا يرتبط بعلاقة المشابهة دائما، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة أبدا، ومن ثمة اعتبر عاملا أساسيا في عملية الإبداع، يستعمل في الحجاج دون أن تكون له علاقة بالمنطق الصوري، فهو لا يطرح معادلة صورية خالصة، ولكنه ينطلق من التجربة بهدف مقبولية الفكرة وإفهامها².

وحري بالبيان أن القدماء قد تفتنوا إلى ما يضيفه التمثيل للخطاب من قوة وقيم حجاجية، وفي هذا يقول الجرجاني: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت

¹ - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 447.

² - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص 97.

عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيهما محبةً وشغفا³.

وبذلك فإن للتمثيل قوة حجاجية مضافة، إذ يلجأ إليه المتكلم قصد إقناع جمهوره، وقد يتعدى ذلك إلى تغيير سلوكه.

ولتوضيح هذه الفكرة نصوغ المثال الآتي:

قال الحجاج بن يوسف بعد قتله لابن الزبير: "ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله، ولو كان شيء مانعا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة؛ لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم عند الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة"⁴.

فلكي يهون الحجاج من شأن قتل ابن الزبير في الحرم عاد لقصة آدم وخروجه من الجنة، وأقام جملة من الثنائيات المتقابلة وهي كالآتي:

ابن الزبير	←	آدم وآدم أعظم منه
حبر هذه الأمة	←	خلق الله بيده وأسجد له اللائكة
الطمع في الخلافة	←	الأكل من شجرة الخلد
مكة	←	الجنة والجنة أعظم منها
القتل	←	الطرد من الجنة

³ - الجرجاني، أسرار البلاغة، ص115.

⁴ - أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، مطبعة مصطفى الباني، مصر، ط1، 1933، ج2، ص283-284.

فقد خلق الله آدم وأنعم عليه بالجنة شرط أن لا يأكل من الشجرة، أكل منها
فأنزل عليه العقاب.

أما ابن الزبير فكان حبر الأمة، طمع في الخلافة فقتل.

نلاحظ هنا وجود إيهام بالتشابه المبني على الاحتمالات لا على اليقين، بل
إنه لينطوي على المغالطة⁵.

⁵ - ينظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الاتقاعي، ص 86-87.